بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

سورة الشعراء سورة مكية، سوىٰ آيات أربع في آخرها، فهي مدنية.

وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾

و﴿طسٓمٓ﴾: هي من الحروف المقطعة التي بُدئت بها أوائل بعض السور؛ لفتًا لأنظار المشركين، وجذبًا لاهتمامهم، حتىٰ يسمعوا القرآن فيؤمنوا، أو تلزمهم الحجة، التي كانوا عن سماع دليلها يعرضون.

وقوله تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ﴾ أي: هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دلائل القرآن ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ الواضح في وحدانية الله وقدرته.

ثم يخاطب الله رسوله قائلًا:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾

أي: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ﴾ قاتل ﴿نَّفۡسَكَ﴾ غمًّا عليهم، أي: من أجل ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، يعني لعل حرصك علىٰ إيمانهم: يؤدي إلىٰ أن تقتل نفسك حسرة عليهم يا محمد، لذا أشفق علىٰ نفسك.

فنحن: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

يعني: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ مخوِّفة لهم، تلجؤهم إلىٰ الإيمان، مثل أن نرفع الجبل فوق رؤسهم، كما حدث لبني إسرائيل، أو أية آية أخرىٰ ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ من غرابتها عليهم، وخوفهم منها ﴿خَٰضِعِينَ﴾ أي: ينقادون فيؤمنون.

ولكنا لم نفعل ذلك، حتىٰ لا يكون إيمانهم قهريًّا، ونحن لا نريد من أحد إلَّا أن يكون حُرًّا في اختياره لما يؤمن به ويعتقده.

وذلك: ليكون ثوابنا وعقابنا علىٰ اختياره الحر.

وهؤلاء مع قدرة الله تعالىٰ علىٰ أن يجعلهم مؤمنين، رغمًا عنهم، إلَّا أنه سبحانه أنزل لهم القرآن، ويذكِّرهم بما فيه حالًا بعد حال، لكن!!

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ من القرآن، دال علىٰ توحيده وقدرته، وهو منزَّل ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ سبحانه ﴿مُحْدَثٍ﴾ ينزل عليهم حالًا بعد حال، في كل حادثة، يدعوهم إلىٰ الإيمان ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ لكفرهم به.

وعلىٰ هذا، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ محمدًا ﷺ، والقرآن، وكفروا بالله تعالىٰ، وبالتالي ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ عواقب ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ويعرفون أنه الحق؛ إذا مسَّهم العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

ومع أنَّ الله أنزل القرآن دليلًا لهم علىٰ وحدانيته وقدرته، وكان ينزل عليهم، ويدعوهم للإيمان حالًا بعد حال: فقد لفت أنظارهم إلىٰ آيات كونية كثيرة تدعوهم إلىٰ الإيمان ـ أيضًا ـ حالًا بعد حال. **فمثلًا:**

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ غفلوا و ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا ﴿إِلَىٰ﴾ ما في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ويعرفوا ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بقدرتنا ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: **كثير المنافع، عظيم الفوائد، للناس والأنعام؟**

إنهم لو لم يغفلوا، ونظروا إلىٰ ما في الأرض، وعرفوا قدرتنا: لآمنوا!! حيث:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

نعم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الخلق ﴿لَآيَةً ۖ﴾ دالة علىٰ وحدانيته وقدرته سبحانه، وهي كافية لإيمانهم، ﴿وَ﴾ لكن مع وجود هذه الآية ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بسببها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ سبحانه ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في انتقامه من الكفرة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به، وتاب إليه وأناب.

ولأن الرسول ﷺ كان كثير الهَمِّ لعدم إيمان الناس، حتىٰ كاد ذلك يهلكه: فقد نبَّهه ربه تبارك وتعالىٰ التخفيف عن نفسه من ذلك، أكثر من مرة.

كما خفف عنه سبحانه: بذكر قصص إخوانه من النبيِّين، وما لاقوه من أقوامهم، في أكثر من سورة من سور القرآن، وقد فعل معه ذلك هنا: في سبع قصص من هذه.

ففي **القصة الأولىٰ** وهي: قصة موسىٰ عليه السلام، يقول له:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

يعني: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مُوسَىٰ﴾ ليلة سفره من مصر إلىٰ الشام، ورأىٰ: النار والشجرة، وقال له: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ رسولًا لهم، ادعهم إلىٰ الإيمان بالله، وعدم استعباد بني إسرائيل، وذبح أولادهم.

ولكن مَن هؤلاء؟ إنهم ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا عباد الله بالطغيان عليه.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ الله، فيخافون عقابه.

ماذا فعل موسىٰ عليه السلام؟

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾

أدرك موسىٰ عليه السلام المهمة، وعرف عقباتها ومصاعبها، فذكرها؛ ليساعده الله في

إزالتها؛ لتنجح مهمته، وليبلِّغ رسالته، حيث: ﴿قَالَ﴾ يا ﴿رَبِّ﴾!! ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ في أني رسولك إليهم.

﴿وَ﴾ آلت إلىٰ أن ﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾ بتكذيبهم هذا ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بما كُلِّفْتُ به من تبليغ، ﴿فَأَرْسِلْ﴾ جبريل ﴿إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ أخي، ليكون نبيًا، يأتي معي ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طـــه ٣١ ـ ٣٤] وننجح في مهمتنا.

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ بقتل أحدهم، وقد غفرت لي ذنبي، أما هم ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ قبل تبليغ الرسالة، فاحمني منهم.

فماذا قال له ربه سبحانه وتعالىٰ؟

أولًا: أجاب طلبه، وأرسل إلىٰ هارون، وجعله نبيًّا.

ثـانـيـا: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهما ﴿كَلَّاۖ﴾ لا تخافا ﴿فَٱذْهَبَا﴾ إليه ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ ورسالتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ وحافظون.

﴿فَأْتِيَا﴾ أي: فادخلا عليه فقولا له:

أولًا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إليك.

ثانيًا: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إلىٰ الشام ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الذين يقيمون عندك، وتستعبدهم بمصر.

وبالفعل: ذهبا إلىٰ فرعون، ودخلا عليه، وقالا له ذلك.

ولمَّا قالا له ذلك!! وجَّه الخطاب لموسىٰ عليه السلام وحده:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى متعجِّبًا ومستنكرًا ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ عندنا، وفي قصورنا ﴿وَلِيدًا﴾ يا موسىٰ ﴿وَلَبِثْتَ﴾ أقمت ﴿فِينَا﴾ عندنا، تنعم بنعمنا ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ !! أنسيت؟ ﴿وَ﴾ كذلك ﴿فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ وهي قتل القبطي !! أنسيت؟ ﴿وَأَنتَ﴾ الآن ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بنعمي عليك؛ حيث تجعل لك ربًّا غيري، ثم تطالبني بإخراج بني إسرائيل من مصر!!

ماذا كان رد موسىٰ عليه السلام؟

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

اعترف موسىٰ بقتل القبطي، وأنه كان خطأ منه بلا تعمُّد؛ حيث قال: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ المخطئين في ذلك، ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلىٰ بلاد مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتلون ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ نبوة وعلمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وأرسلني إليك.

وكان هذا ردًّا منه عليه السلام علىٰ موضوع القتل، وأما بالنسبة لموضوع التربية لموسىٰ فقد قال عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: تربيتي عندك ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا﴾ أي: تمن بها ﴿عَلَيَّ﴾ وهي في الحقيقة: ليست مِنَّةً منك ولا نعمة، بل الحقيقة هي: ﴿أَنْ﴾ أي: أنك ﴿عَبَّدتَّ﴾ استعبدت ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذبَّحت أبناءهم، وهذا سبب وجودي عندك.

ولم يستطع فرعون ردًّا، وانصرف إلىٰ موضع آخر كان يتشاغل عن الخوض فيه، بما سبق من الكلام:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: مَنْ رب العالمين هذا، الذي تزعمان أنه أرسلكما؟ وهل هناك إلٰه غيرى؟

وأجاب موسىٰ عليه السلام عليه:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام: رب العالمين، هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق كل ذلك.

فآمنوا به، واخضعوا له ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأنَّه لا بد لهذا الكون من خالق.

وهنا، التفت فرعون إلىٰ وزرائه وكبار مسؤوليه مستنكرًا، مستهزءًا ثم:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: قال لهم: ألا تسمعون هذا الهراء الذي يقوله موسىٰ..؟

والتقط موسىٰ عليه السلام الخيط من فرعون، وخاطب مَنْ حول فرعون، يحرِّك فيهم ضمائرهم، ويستثير فيهم فطرتهم، حيث:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ إنَّ الذي أرسلني هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا كما يزعم فرعون، وهو ﴿رَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين لم يدَّع فرعون أنه ربهم، فمن ربهم إذًا؟

إنه الله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٤] وليس فرعون، ألا تؤمنون به؟

وجد فرعون أنَّ موسىٰ عليه السلام بدأ يَنْفُذُ بدعوته إلىٰ عقول الملأ من حوله فَجُنَّ جنونه، وبدأ يُوَجِّه هو خطابه إليهم، ليغلق عليهم باب الإيمان بموسىٰ:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ماذا حدث لكم؟ لمَ تستمعون إليه؟ إنه مجنون، فلا تستمعوا إليه.

ولم يَأْبَهْ موسىٰ عليه السلام بما قال عنه فرعون، بل:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أي: استمر يخاطب الملأ من حول فرعون.. حيث ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] هذا، هو ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ ولم يدَّع ذلك فرعون!! فمن ربُّهما وخالقهما إذًا؟ إنه الله ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٤] وليس فرعون، ألا تؤمنون ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾!!؟

عندها، أغلق فرعون باب النقاش، وبدأ البدء في استعمال أسلوب الطغاة عندما يعجزون عن مواجهة الحق:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسىٰ عليه السلام لابد أن تؤمن بي فقط ربًّا لك، و ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ﴾ وجعلتَ لك ﴿إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ سجينًا ﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ في سجوني، وهي كثيرة، وهذا منتهىٰ التهديد، ممن يملك التنفيذ، ولكنّ موسىٰ عليه السلام لم يخف.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام لفرعون: أتجعلني من المسجونين، حتىٰ ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ يدل علىٰ نُبُوَّتي، وإرسالي إليك من رب العالمين، وهو في غاية الوضوح؟

دفع الفضولُ وحبُّ معرفة المجهول والرغبةُ في عجز موسىٰ عليه السلام عن ذلك فرعونَ إلىٰ أن:

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

أي: هات دليلك إن كنت صادقًا.

وعلىٰ الفور:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يعني: ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسىٰ عليه السلام ﴿عَصَاهُ﴾ من يمينه علىٰ الأرض أمام فرعون والحاضرين معه، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ فجأة: تتحَّول إلىٰ ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ حية عظيمة، ضخمة، تتحرك.

ودُهِش الجميع!!

﴿وَنَزَعَ﴾ موسىٰ عليه السلام ﴿يَدَهُۥ﴾ من جيبه، وأخرجها، أمام فرعون والحاضرين معه، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ الأخرى: ﴿بَيْضَآءُ﴾ ذات شعاع منير ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ إليها وإلىٰ الحية المندهشين.

إنها آية بيِّنة، بل آيتان واضحتان، فليؤمن فرعون ومَن معه إذًا.

إلَّا أنّ فرعون عاند، وخشيَ علىٰ مَن حوله أن يؤمنوا، حيث:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ ليصرفهم عن الإيمان بموسىٰ عليه السلام وربه ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: موسىٰ عليه السلام ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

وما فعله أمامكم: هو من السحر فلا تنخدعوا به، ثم بدأ يخوِّفهم من موسىٰ عليه السلام علىٰ مصالحهم ومراكزهم، فقال: إنه ﴿يُرِيدُ أَن﴾ ينتزع المُلْك منكم، ويستبدَّ بالحكم دونكم، و ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾، ثم استشارهم علىٰ غير العادة، قائلًا ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟

يقولون: أذلَّ الحِرْصُ أعناق الرجال.

نعم، حِرْصُهُم علىٰ مصالحهم ومراكزهم ومكاسبهم: أعماهم عن صدق موسىٰ، وجعلهم يشاركون فرعون عناده وطغيانه:

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

يعني: اجعل لموسىٰ وأخيه موعدًا آخر، واجمع السَّحرة من أنحاء البلاد، ولتكن مبارزة بين الفريقين يظهر فيها كذب موسىٰ أمام الناس أجمعين.

واستجاب فرعون لهذا القول، وضرب الموعد المؤجَّل لموسىٰ وأخيه، وجمع السحرة من أنحاء البلاد:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: ﴿فَجُمِعَ﴾ أي: جمع فرعون ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ لهذا اليوم المحدَّد، وجَمَعَ الناس، وكان في يوم عيد، يوم الزينة؛ أملًا في رؤية انتصار السحرة علىٰ هذا الساحر الجديد.

وجاء السَحَرَة:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني: طلبوا ثمن انتصارهم، وأجر عملهم أولًا.

فقال فرعون لهم: لكم ما طلبتم، وزيادة هي: قربكم مني، وعطفي عليكم، وإنعامي إليكم، واهتمامي بكم، إذا انتصرتم علىٰ موسىٰ، وأبطلتم سحره، وفضحتموه أمام جموع الناس.

ثم اتَّجه السَحَرَة لموسىٰ عليه السلام ـ بعد ضمان المكافأة من فرعون ـ وقالوا لموسىٰ عليه السلام ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ ما معك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ﴾ لما معنا ﴿ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: ألقوا ما تريدون من سحركم.

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ علىٰ الأرض، أمام موسىٰ وفرعون والناس أجمعين.

ونظر إليها موسىٰ، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦ ـ ٦٩].

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ تتحوَّل إلىٰ حية عظيمة، صارت ﴿تَلْقَفُ﴾ تبلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يزورون به علىٰ الناس من حبالهم وعصيهم.

وشاهد السَحَرَة ذلك، وهم أهل العلم بهذا الفن وهذا الخداع، ولكن ما حدث من عصا موسىٰ: ليس من عملهم، ولا هو بخداع، إنما هو حقيقة، رأوها بأعينهم.

إن موسىٰ: ليس بساحر.

إن موسىٰ: صادق.

إن موسىٰ: نبي، لابد من الإيمان به، والتصديق برسالته.

وكانت المفاجأة أمام الجميع:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

آمن السحرة، الذين هم سلاح فرعون، في حربه لموسىٰ.

حقًّا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

فهل، يؤمن إذًا فرعون،؟ وهل تؤمن حاشيته؟ وينتهي الأمر، ويعمُّ السلام!!

لا، إنه فرعون، إنه الطغيان، الذي توجَّه بالتهديد الشديد، والوعيد المخيف.

ولكن لا لموسىٰ هذه المرة، بل لسحرته هو:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ فرعون لهم ثلاثة أشياء:

الأول: أنتم ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: لموسىٰ عليه السلام ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ وهذا لم يحدث في مملكتي من قبل، فكل شيء بأمري وإذني فقط، وإيمانكم له بدون إذني جريمة لا أغفرها لكم.

الثاني: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ﴾ وكنتم تلتقون به من خلفي، وبعيدًا عن أجهزة رقابتي علىٰ الناس، وتخطِّطون في هذه اللقاءات للإفساد بالبلاد، وإضرار العباد، وقلب نظام الحكم، وانتزاع الملك مني، وهذه جريمة لا أغفرها لكم.

الثالث: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ ما أُنزِله بكم من عذاب، وأفعله فيكم من عقاب.

ثم شرح هذا التهديد المجمل تفصيلًا؛ ليخيفهم، ويصرفهم عن إيمانهم بموسىٰ عليه السلام وربه، حيث قال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ اليد اليمنىٰ مع الرجل اليسرىٰ، والعكس، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في جذوع النخل؛ لتكونوا عبرة لغيركم مِمَّن تُسوِّل له نفسه أن يفعل مثلكم.

إن الرجل جاد ويملك التنفيذ، ومع ذلك:

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ﴾ أي: لا ضرر علينا؛ حيث ﴿إِنَّا﴾ لا نخلد في الدنيا، بل ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بعد موتنا بأي شكل ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون، وسيجازينا من عنده.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ في كرمه وعفوه ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ السابقة، التي اقترفناها، خاصة: و ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من هذه الجموع الحاشدة، وأمام هذا الطاغوت الأكبر، ومع موسىٰ عليه السلام، هذا النبي الأعزَل إلَّا من عناية الله.

وهكذا، انقلب السحر علىٰ الساحر، وانتصر الحق، وزهق الباطل.

وهكذا، انفض الجميع، وانتهىٰ يوم الزينة، وبقي فرعون علىٰ كفره وعناده، وصار موسىٰ عليه السلام: يدعو لربه، ويبلِّغ للناس رسالته.

ومرت الأيام، وأراد الله أن يحقِّق النصر الكامل لعبده موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون الذي طغىٰ.

يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يعني: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ﴾ أي: سِرْ ليلًا ﴿بِعِبَادِيٓ﴾ بني إسرائيل؛ لتخرج بهم من مصر، وتبعدهم عن ذلِّ فرعون، ويكون ذلك الخروج ليلًا؛ حيث ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ مراقبون من فرعون.

إذْ لابد من الحركة؛ حتىٰ يتخلَّصوا من الذل، ولو لم يتحركوا لن يتخلصوا.

وعلم فرعون بخروجهم، وعرف وجهتهم:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ والقرى مَن يجمع الناس، وجنود الاحتياط؛ ليلاحقوا موسىٰ عليه السلام ومَن معه، ويأتون بهم ﴿حَٰشِرِينَ﴾ لهم.

وقال فرعون يحمِّس جنوده وأتباعه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين فرُّوا مع موسىٰ ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ طائفة ﴿قَلِيلُونَ﴾ في العدد، ولن يفلتوا منا.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: وما كنا نهتم بهم إلَّا أنهم كانوا يغيظوننا، وهذه الفعلة زادتنا غيظًا علىٰ غيظ منهم.

﴿وَ﴾ علىٰ كل ﴿إِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ واعون لهم، وهم تحت سيطرتنا.

وتحرَّك فرعون بجيوشه لملاحقة موسىٰ ومَن معه:

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

وبهذا التحرُّك، وبهذه الملاحقة من فرعون وقومه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار جارية، ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أموال طائلة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يتنعَّمون فيه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ يكون الإخراج، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ أي: هذه الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم فيما قضينا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يرثها بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون.

فرعون وجنوده علىٰ الفور ﴿أَتْبَعُوهُم﴾ أي: طاردونهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ جهة الشرق.

وبالفعل لحقوا بهم، ورأوهم، واقتربوا منهم.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ وقع أصحاب موسىٰ في حيرة!! ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وقالوا لموسىٰ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: سيلحقوننا، ويكونون من خلفنا، والبحر من أمامنا، فماذا نفعل؟ ﴿قَالَ﴾ موسىٰ بكل هدوء وثقة في نصر الله: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ﴾ لن يلحقوكم، فلا تخافوهم؛ حيث ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة منهم، والنصر عليهم.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ

﴿ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

أي: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ في هذه اللحظة ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ﴾ وهو البحر الأحمر ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ الماء إلىٰ اثني عشر طريقًا ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: جزء منه ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الجبل الكبير الضخم العالي، ودخل موسىٰ وبنو إسرائيل إلىٰ البحر، وساروا في هذه الطريق الجديدة، ورآهم فرعون وجنوده وخدع الغرورُ الطاغيةَ، وخُدِعَ قومه.

يقول تعالىٰ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: قرَّبناهم من الماء.

ودخلوا في البحر، وساروا في طرقه، ووصل موسىٰ وقومه إلىٰ الشط الآخر، وخرجوا من البحر، وفرعون ـ ما يزال وقومه ـ في البحر؛ يلاحقون موسىٰ ومن معه، وفجأة ينطبق الماء، ويموج البحر!

﴿وَ﴾ هكذا ﴿أَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ لم يغرق منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه، لم ينجُ منهم أحد.

يعني: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك ﴿لَءَايَةً ۖ﴾ دالة علىٰ وحدانية الله وقدرته، آية توصل مَن يعتبر بها إلىٰ الإيمان والهداية، ﴿و﴾مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ حيث انتقم من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث نجَّا أولياءه.

القصة الثانية وهي: قصة إبراهيم عليه السلام، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ لمحمد ﷺ:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقصص علىٰ قومك، وعلىٰ كفار الدنيا كلها ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: خبر إبراهيم عليه السلام؛ لتقتدي هذه الأمة به في إخلاصه، وثقته في الله.

وذلك: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ أي: وقت أن قال لأبيه وقومه ﴿مَّا﴾ هذا الذي ﴿تَعْبُدُونَ﴾ منكِرًا عليهم عبادتهم للأصنام..؟

وبغباء أجابوه:

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ هي أصنام نعبدها، ﴿فَنَظَلُّ لَهَا﴾ وسنظل على عبادتها ﴿عَٰكِفِينَ﴾ أي: مستمرين.

واستدرجم ليبيِّن خطأهم، حيث:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم هل هي تعقل؟ وهل هي تسمع؟ وهل هي تنفع أو تضر؟

ولم يستطيعوا الإجابة على أية واحدة من هذه التساؤلات بنعم، لذلك:

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: هي لا تعقل، ولا تسمع، ولا تنفع، ولا تضر.

ولكن ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ﴾ كما نفعل، كانوا ﴿يَفْعَلُونَ﴾: فقلدناهم.

فرد عليهم، حيث:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ هذه الأصنام التي تعبدونها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأولون: إنها لا تساوي شيئًا.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ فليفعلوا ما يشاؤن إن استطاعوا، ولن يستطيعوا، وأنا عدوٌّ لها، أسخر منها، وأهزأ بها.

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو ربي، وأنا خاضع له، مطيع لأمره.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

فهو الذي: خلقني، ويهديني، ويطعمني، ويسقيني، ويشفيني، ويميتني، ويحييني، ويغفر لي خطاياي، وهذه أوصاف ثمانية من جملة أوصاف كثيرة يتَّصف بها ربي، فهل تتصف آلهتكم بمثل ذلك، أو بشيء منه؟

وهو بذكره هذه الأوصاف: قد أثنىٰ علىٰ ربه، وبيَّن ـ في الوقت ذاته ـ عجز آلهتهم، وفساد عبادتهم لها.

ومع ذلك لم يدافعوا، بل لم ينطقوا فتوجَّه إلىٰ ربه بالدعاء، بعد تقديم الثناء، حيث قال:

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

هذه دعوات ست سألها إبراهيم عليه السلام ربه:

الأولىٰ: ﴿هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي: عِلمًا، وقد كان.

الثانية: ﴿وَأَلْحِقْنِى﴾ بعبادك ﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ في الدنيا والآخرة، وهم الأنبياء والمرسلون، وقد كان.

الثالثة: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي: ثناءً حسنًا وذرية مسلمة ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾، وقد كان.

الرابعة: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: من أهلها، الخالدين فيها، وسيكون بإذن الله.

الخامسة: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ أي: اجعله مسلمًا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الكافرين.

السادسة: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ بالفضيحة والعذاب أمام الخلق ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ للحساب، والجزاء ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ أحدًا ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بشيء ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ﴾

يومئذ ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الكفر والنفاق.

ثم يقول ربنا عز وجل عن هذا اليوم:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قُرِّبت ﴿ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين أطاعوا ربهم في الدنيا.

﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أُظْهِرت ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ وهي النار ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الكافرين.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الكافرين؛ استهزاءً!! ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ الآن ويدفعون عنكم العذاب؟ ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ هم، فيدفعون عن أنفسهم؟.. ولا يجيبون!!.

يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ يعني فأُلقي بعضهم علىٰ بعض في النار، ﴿هُمْ﴾ أي: الأصنام ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي: الكافرون.

﴿وَ﴾ ألقي معهم كذلك فيها ﴿جُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ وهم كل مَن أطاعه من الجن والإنس ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

فإذا دخلوا فيها، وأُلقي بعضم فوق بعض تخاصموا، نعم:

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مع آلهتهم في جهنم ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا﴾ لقد كنا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ واضح!! ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَ﴾ الحقيقة: أنه ﴿مَا أَضَلَّنَا﴾ هذا الضلال ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: الشياطين، والكبار الذين اقتدينا بهم في هذا الضلال.

ثم قالوا بكل حسرة: واليوم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ يشفعون لنا عند ربنا في تخفيف العذاب عنا.

﴿وَلَا﴾ لنا أيضًا: من ﴿صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ كما نرىٰ للمؤمنين كثرة الأصدقاء.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ عودة إلىٰ الدنيا فنؤمن، ونعمل صالحًا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين لا يُعذَّبون، بل يدخلون الجنة ويُنعَّمون!! **حقًّا**:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك ﴿لَآيَةً﴾ دالة علىٰ وحدانية الله وقدرته، آية توصل مَن يعتبر بها إلىٰ الإيمان والهداية ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي ينجِّي أولياءه.

القصة الثالثة وهي: قصة نوح عليه السلام، يقول العزيز الرحيم:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾

يعني: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحًا، ولأنه واحد من ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: فكأنَّهم كذَّبوا جميع المرسلين.

وذلك ﴿إِذْ﴾ أي: وقت أن ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، فتؤمنون به.

يا قوم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ علىٰ تبليغكم ما أُرسلت به إليكم ﴿فَاتَّقُوا﴾ غضب الله بإيمانكم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

﴿وَ﴾ اعلموا جيدًا أني ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وهو تبليغي لكم ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ آخذه منكم ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ وثوابي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وليس عليكم.

﴿فَٱتَّقُوا۟﴾ غضب ﴿ٱللَّهَ﴾ وآمنوا به ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأنهاكم عنه.

بلَّغ نوح قومه رسالته، ودعاهم إلىٰ الإيمان بالله، وقال لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

فهل آمنوا، واتبعوه؟ كلا، بل:

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

أي: ﴿قَالُوٓا۟﴾ له ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ ونتبعك ﴿و﴾ قد ﴿ٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ رعاع الناس وفقراؤهم، طمعًا في العزة والمال؟

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم مجيبًا عليهم ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ويهدفون بإيمانهم، ويخفون في صدورهم، وليس لي منهم إلَّا ظاهر أمرهم، وأمَّا ما يخفون من أغراض ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ فيه ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى﴾ الذي يعلم السر وأخفىٰ ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

ولن أطردهم من عندي كما تريدون، فهم مؤمنون ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ أبدًا ﴿بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما أنَّ مهمتي ليست الحكُم علىٰ الناس، ولا التحكم فيهم، وما ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مبعوث لإنذار المكلفين جميعًا، وتخويفهم من غضب الله وعذابه، ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: واضح في مهمتي وتبليغ رسالتي.

الكلام واضح وقوي، ولا رد عندهم، ولا تعقيب لهم عليه، ولذلك فالمناسب: إسكاته وتخويفه:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ وتسكت عمَّا تقول وتدعونا إليه، وتجمع به حولك أراذل الناس: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ الذين نرجمهم بالحجارة، ونعذبهم حتىٰ الموت.

وكانوا جادين، ولا غرابة في ذلك: فهي عادة الطغاة الظالمين، مع الدعاة الصالحين.

وبعد أن طالت دعوته لهم، واشتد تهديدهم له، مع إصرارهم علىٰ كفرهم، لجأ إلىٰ ربه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

دعا نوح عليه السلام ربه، حيث ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ فيما بلَّغتهم به ودعوتهم إليه ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

لذلك، ﴿فَافْتَحْ﴾ أي: فاحكم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ من عندك، ﴿وَ﴾ إذا كان حكمك عليهم بالعذاب لهم علىٰ كفرهم هذا ﴿نَجِّنِي﴾ منه أنا ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بك، الذين اتبعوني، وأطاعوا أمري.

واستجاب الله دعاءه، يقول الله تعالىٰ:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

أي: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن﴾ آمن ﴿مَّعَهُ﴾ من الهلاك ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء بالأمتعة وغيرها، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان ﴿بَعْدُ﴾ أي: بعد إنجائه ﴿الْبَاقِينَ﴾ الكافرين من قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك من خبر نوح عليه السلام ﴿لَآيَةً﴾ دالة علىٰ وحدانيتنا، وقدرتنا، آية توصل مَن يعتبر بها إلىٰ الإيمان والهداية، ﴿و﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي يُنجي أولياءه.

القصة الرابعة وهي: قصة عاد قوم هود عليه السلام، يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

يعني: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ وهم قوم هود، كذَّبوا هودًا عليه السلام.

ولأنه واحد من ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فكأنهم كذبوا ـ كذلك ـ جميع المرسلين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ أي: قال لهم هود عليه السلام مبلغاً وناصحاً، وهو ما قاله نوح عليه السلام نفسه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٧-١٠٩].

ثم زاد: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الأمور الخاصة بهم، حيث قال لهم:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

زاد ثلاثة أشياء كانوا يفعلونها، وذكَّرهم بها:

الأول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مكان مرتفع ﴿ءَايَةً﴾ بناءً ضخمًا فخمًا ﴿تَعْبَثُونَ﴾ فيه وتلهون، وهذا لا يليق بكم، ولا يُقبل منكم.

الثاني: ﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ أي: تبنون لأنفسكم ﴿مَصَانِعَ﴾ قصورًا مشيدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فيها، وتقيمون أبد الآبدين، وهذا لن يكون؛ حيث إنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الثالث: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ عاقبتم أحدًا ﴿بَطَشْتُمْ﴾ به ﴿جَبَّارِينَ﴾، إذًا فيكم قسوة وغلظة وظلم للآخرين.

ولمَّا ذكَّرهم بهذه الأشياء، وعظهم مرة أخرىٰ، وزجرهم عن حب الدنيا القاتل، ورغَّبهم في الآخرة ونعيمها، إذْ قال لهم:

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾

أي: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ غضب الله وآمنوا به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأنهاكم عنه.

ثم واصل هود عليه السلام هذا الوعظ لهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم؛ ليكون وعظه أقرب لقبولهم، فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾

والمعنى: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ غضب الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من النعم الكثيرة.

ومنها أنه سبحانه ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ﴾ تتمتَّعون بها ﴿وَبَنِينَ﴾ تساعدكم في رعايتها وحفظها.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ ينابيع وأنهار.

فهل اتعظوا؟ كلا، وكذلك: خوفهم بقوله:

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

يعني ﴿إِنِّىٓ﴾ شفوق لكم حريص على مصالحكم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إذا أصررتم على العناد والكفر ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة.

وهنا نطقوا وتكلموا، مستهزئين:

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

أي: ﴿قَالُواْ﴾ لهود عليه السلام ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ يستوي عندنا ﴿أَوَعَظْتَ﴾ لنا ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ فلن نقبل كلامك، ولن نرجع عما نحن فيه.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الذي نحن عليه من الدين ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: دينهم من الآباء والأجداد، ونحن راضون به، باقون عليه.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما تقول وتهدِّدنا به؛ حيث لا بعث ولا حساب.

وهذا هو قمة التكذيب والعناد الذي يستحق العقاب، لذلك يقول ربنا عز وجل:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

يعني: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وعاندوه في دعوته ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ في الدنيا بالريح العقيم، كما يقول تعالىٰ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]. وهكذا انتهى أمرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك من أمر عاد قوم هود ﴿لَآيَةً﴾ دالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا، آية توصل مَن يعتبر بها إلىٰ الإيمان والهداية، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي ينجِّي أولياءه.

القصة الخامسة وهي: قصة ثمود، قوم صالح عليه السلام، يقول الله تعالىٰ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يعني: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح صالحًا عليه السلام ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ولأنه واحد من المرسلين: فكأنهم كذبوا ـ كذلك ـ جميع المرسلين.

فقال لهم صالح عليه السلام: ما قاله نوح وهود عليهما السلام.

ثم زاد عليه الأمور التالية الخاصة بقومه، قال لهم:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

الأول: هل تظنون أنكم ستتركون هكذا في دياركم آمنين من الموت، وأنه لا دار للجزاء ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ في الدنيا ﴿آمِنِينَ﴾

ثم فسَّر الذي هم فيه، والذي يخدعهم ويجعلهم آمنين، حيث قال: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ ثمرها ﴿هَضِيمٌ﴾ لطيف جميل.

الثاني: طلب الاستعلاء في الدنيا ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ضخمة رائعة، وأنتم بها ﴿فَارِهِينَ﴾ مترفين، عابثين.

ولمَّا ذكَّرهم بهذه الأشياء، وعظهم مرة أخرى، وزجرهم عن حب الدنيا القاتل، ورغَّبهم في الآخرة ونعيمها قائلًا لهم:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾

أي: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ غضب ﴿ٱللَّهَ﴾ وآمنوا به ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأنهاكم عنه.

فهل اتعظوا؟ كلا، ولذلك نهاهم صراحة، عمَّا هم فيه بقوله:

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

يعني: اتقوا الله ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ الذين يكثرون من ملذات الدنيا وشهواتها ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بعدم إيمانهم، وعدم طاعتهم لله، وعدم إسعادهم للعباد ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فيها.

وهنا، نطقوا وتكلموا مستهزئين:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾

أي: ﴿قَالُوٓاْ﴾ له أمرين:

الأول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ وهم الذين سُحِروا كثيرًا، حتىٰ غلب السحر علىٰ عقولهم، فأصبحوا لا يدرون ما يقولون.

الثاني: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فكيف تكون نبيًّا؟ ولو أنك تريد أن نصدِّقك ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾ تدلنا علىٰ صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوىٰ الرسالة.

وهنا، سأل صالح ربه: أن يأتي لهم بآية وأجابه ربه، وكانت الناقة:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ وهي الآية التي طلبتموها دلالة علىٰ صدقي لكم، وهذه الناقة ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ أي: نصيب من الماء تشربه في يوم ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ﴾ في ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لكم ولها، دون تزاحم علىٰ الماء بينكما، وهي: تعطيكم في يومها الذي تشرب فيه الماء، لبنًا يكفيكم.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿لَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ من ضرب أو ذبح، وإلَّا ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ لو آذيتموها ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذابًا شديدًا.

وأقامت الناقة بينهم، وصاروا ينتفعون بها، ولمَّا طال عليهم الأمد، وحضر أشقاهم إليهم، وعبث بهم الشيطان أجمعوا أمرهم علىٰ قتلها وذبحها:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾

ثلاثة أشياء فعلوا: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني: ذبحها بعضهم، ولكن برضىٰ الجميع، ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ خائفين من العذاب ﴿نَٰدِمِينَ﴾ علىٰ ذبحها، ولكن بلا إيمان، ولا توبة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهي الصاعقة، التي أخذتهم ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٤، ٤٥].

وهكذا انتهىٰ أمرهم.

يعني: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك، من أمر قوم صالح ﴿لَءَايَةً﴾ دالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا، آية توصل مَن يعتبر بها إلىٰ الإيمان والهداية، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي ينجِّي أولياءه.

القصة السادسة وهي: قصة لوط عليه السلام، يقول الله سبحانه:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

هو نفس الذي كان مع نوح وهود وصالح عليهم السلام.

ولكن زاد عليه هذا الخاص بهم، حيث قال لهم:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

يعني: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ وتطؤونهم دون الإناث، وأنتم وحدكم تفعلون هذه الفاحشة، دون غيركم ﴿مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

﴿وَتَذَرُونَ﴾ تتركون ـ في الوقت ذاته ـ وطء ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ في الحلال، هذه فاحشة كبرىٰ.

لا، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ تعدَّيتم حدود الفواحش، وتجرَّأتم علىٰ ما أحلَّ لكم ربكم، وما حرَّم عليكم.

فهل اتعظوا؟ كلا بل نطقوا، وتكلموا مهددين.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ محذرين ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ﴾ عن كلامك هذا، وتسكت ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من ديارنا، طردًا لك.

وأجابهم قائلًا:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

يعني: حتىٰ ولو أسكتموني، أو أخرجتموني، فـ ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ الفاحش هذا ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ المبغضين الكارهين.

ثم اتجه إلىٰ ربه عز وجل بقوله:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

أي: يا ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ من عقاب ﴿مَا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا وفي الآخرة.

وأجاب الله عز وجل دعاءه سريعًا، حيث قال تعالىٰ:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

يعني: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ من الهلاك والدمار ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته، كانت ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الهالكين؛ حيث كانت راضية بهذه المعصية، غير منكرة لها.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ تدميرًا كاملًا شاملًا.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ كذلك ﴿مَّطَرًا﴾ من حجارة، زيادة علىٰ جعل عالي بلادهم سافلها. ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ هذا المطر.

يقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

وهكذا انتهىٰ أمرهم.

القصة السابعة وهي: قصة شعيب عليه السلام، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

وهو نفس الذي كان من: نوح، وهود، وصالح، ولوط، عليهم السلام.

ولكنه زاد عليه ما هو خاص بهم، حيث قال:

﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

يعني: طلب منهم هذه الأمور:

أولًا: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ وأتموه لصاحبه ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ المغتصبين حق الغير ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ بالميزان ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ العادل.

ثانيًا: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟﴾ بصفة عامة ﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ المادية والمعنوية.

ثالثًا: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتبالغوا في إفسادها، حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ بأية صورة من صور الفساد.

رابعًا: ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وخلق كذلك ﴿ٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: الخليقة السابقين عليكم.

فهل اتعظوا؟ كلا بل نطقوا مكذبين، مهددين، شأن الطغاة الظالمين:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

أي: ﴿قَالُوٓا۟﴾ له عدة أمور:

الأمر الأول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ وهم الذين سحروا كثيرًا، حتىٰ غلب السحر علىٰ عقولهم، فأصبحوا لا يدرون ما يقولون.

الأمر الثاني: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فكيف تكون نبيًّا؟

الأمر الثالث: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما تدّعيه؛ لِتَترأَّس علينا.

الأمر الرابع: أنت تهدد بالعذاب ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تهلكنا بها ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أنك نبي مرسل.

ولمَّا سمع شعيب منهم ذلك، فوض الأمر لله تعالىٰ:

﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أي: إن ربي عالم بعنادكم، ويجازيكم عليه، وينصرني عليكم، وواضح أنه لجوء منه إلىٰ الله، وتسليم الأمر إليه. يقول الله تعالىٰ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾

يعني: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وعاندوه في دعوته.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ﴾ فأهلكهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

حيث يروىٰ أنه حبس عنهم الريح سبعًا، وسلط عليهم الرمل، فأخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم ظل ولا ماء، فاضطروا إلىٰ أن خرجوا من بيوتهم، فأظلتهم سحابة، وجدوا لها بردًا ونسيمًا، فاجتمعوا تحتها؛ فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا، وهكذا انتهىٰ أمرهم.

يقول الله سبحانه:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

بهذه الآيات الكريمة انتهت قصة شعيب عليه السلام بل انتهت القصص السبع التي قصَّها الله علىٰ حبيبنا محمد ﷺ؛ ليثبته بها، ويواسيه علىٰ ما يلاقيه من قومه من خلالها، ويؤازر المؤمنين في مواقفهم القوية في مواجهة الباطل وأعوانه بدروسها.

وبعد هذا القصص، يكون حديث السورة عن القرآن الكريم، والتحذير من الإعراض عنه وعن الرسول ﷺ، والتحذير من العصيان له، يقول عز من قائل:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي وردت فيه هذه القصص ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وليس من تأليف محمد، بل ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ إليه من عند الله تعالىٰ ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام.

وذلك النزول به كان ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتَكُونَ﴾ بما فيه ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ المخوفين من عذاب الله، وقد نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: فصيح، كامل، شامل؛ لتنفع به الحجة، وينقطع به العذر.

أيضًا.. ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: صفة القرآن، وأنه تنزيل من رب العالمين، أو هذا القصص ﴿لَفِى﴾ أي: موجود في ﴿زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كتب الأنبياء السابقين.

وهذا دليل علىٰ نبوة محمد ﷺ؛ حيث لم يسبق أن تعلّم أو عرف ما في هذه الكتب السابقة.

هذا، ولأن صفة القرآن كانت في كتب السابقين، فقد عَلِمَها علماء بني إسرائيل، وفي هذا دلالة علىٰ نبوته ﷺ، لذلك يقول تعالىٰ موبخًا للكفار:

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

يعني: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ علىٰ صدق نبوته ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بصفته ﴿عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيؤمنوا به، ويصدقوا محمدًا في رسالته؟

يا سبحان الله، نزل القرآن عليهم بلسان عربي فصيح، واضح، معجز!! وظهر لهم أن علماء بني إسرائيل كانوا يعلمون وصفه قبل نزوله علىٰ محمد ﷺ، كورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلام، وغيرهم من أهل الكتاب، حتىٰ يومنا هذا، ومع ذلك لم يؤمن هؤلاء الكفار.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ حتىٰ ﴿لَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يعرفون العربية ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾ هذا البعض عليهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لعدم فهمهم لمَا يقول.

والمعنىٰ: أنهم فهموا القرآن، أو لم يفهموه ما هم بمؤمنين.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

أي: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ العناد ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أي: الكفر، وأدخلناه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين من أعدائك الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ويصدقون ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ بأعينهم، ويشهدوا ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ينزل بهم ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿فَيَقُولُوا﴾ ساعتها ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: نُعْطَى مهلة؛ لنعمل صالحًا..؟

عجيب أمر هؤلاء الكفار، الذين يطلبون المهلة الآن! إنهم كانوا يستعجلون العذاب في الدنيا، لذلك يقول المولىٰ عز وجل:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

يعني: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ حين يرون العذاب الأليم ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ أبدًا، ولكنهم يطلبون المهلة، ويقولون هل نحن منظرون!!

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أخبرني ﴿إِن﴾ أجبناهم إلىٰ ما يطلبون من المهلة، و ﴿مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾!!

﴿ثُمَّ جَآءَهُم﴾ بعدها ﴿مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ به من العذاب.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ وما منع هذا العذاب ﴿مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ به، من بريق الدنيا، ومتاعها، وزخرفها.

﴿و﴾ هكذا، ﴿مَآ أَهْلَكْنَا﴾ بالعذاب ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ كفر أهلها ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أرسلناهم؛ يخوفونهم من غضب الله وعذابه.

وذلك ﴿ذِكْرَىٰ﴾ وموعظة لها ﴿وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم.

هذا، ولمَّا قال بعض الكفار: إن هذا القرآن من جنس ما تتنزَّل به الشياطين، ردّ الله عليهم بقوله:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

أي: إن القرآن من عند الله ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ كما يدعي الكفار، وذلك لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أنه ﴿مَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ وما يصح منهم؛ لأنه هداية، وهم أهل فساد ولا يحبون الهداية.

السبب الثاني: أنهم ﴿مَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك حيث إنهم، وهذا هو:

السبب الثالث: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ بقدرة الله.

وما دام قد ثبت بهذا الشكل أن القرآن من عند الله، وليس مما تنزلت به الشياطين.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾

وفي هذه الآيات يأمر ربنا محمدًا ﷺ بثلاثة أشياء:

أولها: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ومن المحال أن يفعل محمد ذلك!! ولكنه دعوة لزيادة الإخلاص وتربية لغيره عليهم السلام، وإلَّا ﴿فَتَكُونَ﴾ وكل مَن يفعل ذلك ﴿مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾.

ثانيها: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وكان ذلك في بدء الدعوة.

ثالثها: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وألِنْ جانبك، وأحسن معاملتك ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأما مَن كفر، فالأدب معه يختلف باختلاف الأحوال.

ثم يقول له ربه:

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

أي: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي: عشيرتك وأهلك الأقربون، ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عبادة غير الله ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في جميع أمورك ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي يقهر أعداءك بعزته وسلطانه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي ينصرك عليهم برحمته ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ﴾ في جوف الليل ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ للتهجير، ﴿و﴾ يرى ﴿تَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بالصلاة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقول ويقولون ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تفعل ويفعلون، الذي يجازيك خيرًا، ويجازي أعداءك شرًّا.

يا محمد، إنهم يقولون تنزل الشياطين عليك بالقرآن؟ اسمع، ويسمعون..

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني: هل أخبركم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ حقيقة؟

إنها: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر، مثل مسيلمة وسلمان رشدي، وغيرهما، حيث إنهم أي: الشياطين ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ رغبة منهم في معرفة أخبار السماء ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ فيما يدعونه.

إذن، ليس هذا القرآن مما تنزلت به الشياطين كما يدعون، ولا من باب الشعر كذلك، ولا من قول الشعراء، يقول الله سبحانه:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

محمد ﷺ يتبعه المهتدون ﴿و﴾ أما ﴿ٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الضالون بدليل ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام وأنواعه، حقًّا كان أو باطلًا ﴿يَهِيمُونَ﴾ يخوضون، دون تفرقة بين النافع والضار، والصواب والخطأ.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ كذلك ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ومحمد ﷺ بشهادة أعدائه يفعل ما يقول، ولكن ليس كل الشعراء كذلك، يقول تعالىٰ ويستثنىٰ منهم:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

إذا وُصف الشاعر بهذه الصفات الأربع، فليس هو ممن يتبعهم الغاوون:

الوصف الأول: الإيمان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الوصف الثاني: والعمل الصالح ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

الوصف الثالث: ذكر الله ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

الوصف الرابع: الانتصار ممن ظلمهم ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾.

﴿و﴾ بعد، ﴿سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أنفسهم وأعرضوا عن الاهتداء بالقرآن، وبما في هذه السورة من آيات، ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ سيِّئ ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ إليه ألا فلينتبه العقلاء!!

* * *